بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الطفل هذا الصغير الكبير، والضعيف القوى، العاجز تماماً والمعتمد على غيره دائماً، والقادر المؤثر، والمنجذب الجاذب، والملتصق المستقل .. لكنه فى كل الأحوال واعد إذا أحسنت تربيته، ووعيد إن أسيئت تنشئته .. فهو صغير فى حجمه، وكبير لأنه مختزن الرجولة والأنوثة، والإرادة والمواقف. وهو ضعيف، لأنه لايستطيع مقاومة غيره، وفى الوقت نفسه، دائم الاعتماد على هذا الغير وقوى لأن الكل متفاعل معه؛ لأنه عاجز عن أن يفى باحتياجاته، وقادر ومؤثر لأن الجميع فى خدمته، ومنجذب إلى الغير وجاذب لعواطف الآخرين، وملتصق بغير الشخصية المستقلة تصاحبه من لحظة تكونه .. ونستطيع أن نجعل منه لبنة صالحة فى البناء الاجتماعى والإنسانى بالتربية، وأن نجعل منه خطراً يهدد البناء بالإهمال، فهل لنا أن ندرك، العلاقة الحميمة، الصميمة بين الطفل، وتنشئته، وحسن تربيته، ورعاية ذوقه وحسه، ورقة شعوره، وعواطفه، وبين صلاحه وقوة شخصيته، وإيجابية حياته ومعظم توجهاته، وعمق انتمائه الوطنى والقومى والدينى والإنسانى؟؟ وفى كل الأحوال، فالقدوة ضرورة من ضرورات التربية والتنشئة. بل إن القدوة، هى الأكثر تأثيرا على الطفل إيجابا أو سلبا.

والإنسان فى طفولته، من أضعف مخلوقات الله جميعاً، وأكثرها حاجة إلى الغير، وأوفرها حظا من الأحاسيس والمشاعر والعواطف .. وعلى رغم ضعفه وعجزه، فإنه يمتلك قدرة باهرة، وإمكانات قادرة على التوافق مع المجتمع، والتنبؤ مع البيئة المحيطة .. فهو الكائن الوحيد الذى ينمو فى إطار البيئة ومؤثراتها، وتفاعلها. وهذا العجز مع الضعف، يتضمن فى الوقت نفسه قوة كامنة، تتحول إلى قدرات إبداعية، وإرادات خلاقة، تجعل من هذا الكائن العاجز الضعيف خليفة الله على الأرض، فيملؤها عدلا وعلماً ورخاء، وثقافة وتقدماً إذا أحسن فهمه وتوجيهه، وقد يفقد هذا الشرف، فيملأ الأرض جورا، وجهلا، وخرافة إذا أسيء توجيهه، وترك له الحبل على الغارب

والإنسان ذلك الكائن العظيم، شديد التعلق بالمكان والزمان .. وهو مابين بطن أمه وأحضانها، وبيئته المنزلية، ثم المدرسية والمحلية، والوطنية والإقليمية، والعالمية والإنسانية، شديد الحساسية لكل تلك البيئات، ومؤثراتها، وذلك حسب الإطار البيئى المرحلى الذى يمر بتطوراته .. ولكل مرحلة بيئتها، ولكل بيئة نصيبها من الفعل الإنسانى المؤثر، ابتداء من الطفولة الجنينية، ومروراً بطفولة الأحضان، ثم الهرم والضعف، ثم الصبا والشباب والشيخوخة، إيذاناً بالرحيل، كما أن الإنسان، هو الكائن الوحيد الذى قد نتوسع فى تعريف عمره، متجاوزين عنصر الزمن، ومر الأيام والليالى، وتتابع السنين، لنعرفه بأنه مجموعة من الخبرات والتجارب، والمواقف العظيمة، والإرادات الجريئة.. حيث الوجودية الإنسانية تقاس - أحياناً - بمدى مايتضمن هذا الوجود من مواقف، ورؤى شاملة، وماقد يتخلل هذا الوجود من إنجاز، وإضافة محسوبة للبشرية، فالإنسان ليس فقط حادثا يقع، أو زمنا يمر أو أياما تتراكم، لكنه أعمق من هذا. حيث يقاس عمر الإنسان بمدى مااختزن من خبرات إنسانية، وحصل من تجارب اجتماعية ووعى الكثير من الحقائق العلمية .. ومن ثم فإن نمو الإنسان فى جسمه وعقله ووجدانه متوقف على مدى تقدم بيئته ووعى مجتمعه، فالإنسان بعامة، وطفولة الإنسان بخاصة، يتوقف نموه بطريقة صحيحة، وسليمة على موقع مجتمعه وبيئته المحيطة من الحضارة والتقدم والثقافة.. والطفل يحصل على الأساسيات من المعرفة الأولية، والمقدرة اللغوية - وهى أساسية فى التعرف على ذكاء الطفل - والقدرة على التكيف، والتنبؤ، وذلك إذا نشأ وتطور فى بيئة منزلية ومدرسية ووطنية تتوافر لها عناصر التقدم، وتمارس الحضارة، وتمتلك ثقافة شاملة.. ويفقد الطفل كل هذا حينما يكون فى بيئة متخلفة مفككة لاتسودها نظرية، ولاتغلف حياتها خبرات متواصلة، وتجارب متوالية. ولاتتشكل خلفيتها من حقائق موصولة بتراثها؛ لأن الشخصية هى نتاج الثقافة، والأخيرة تتكون فى الواقع من الخلفية التراثية، ومن مجموعات التقاليد والعادات والأفكار، التى تميز مجتمعاً عن آخر.

ولذلك .. فإن الإنسان يمر بمراحل فكرية وسياسية وفنية وثقافية. وتتوالى سنوات عمره في دوائر هذه المرحلة، وتبدأ أولى هذه المراحل بالطفولة، التى تستجيب لكل ماهو طفولي وكوني وفطرى وخيالى وبطولى وفردى، كما تعد هذه المرحلة أشد مراحل العمر تشكلاً وتأثراً واستقبالاً وتفتحاً، ويكون الطفل فيها قد حاول أن يتخذ موقفه من الحياة والمجتمع والناس، وحاول المتعاملون معه أن يغرسوا فيه مواقف ثابتة، ويأخذوا فى تحديد منهج اجتماعى وثقافى واضح المعالم والاتجاهات، ويتفق والفلسفة العليا لمجتمعه .. كما أن هذه المرحلة بداية النزوع الثورى، والميل إلى العنف، والخروج على المعتقدات والأفكار والقيم التى يريد المجتمع فى شخص الآباء والمعلمين والمصلحين تكوينها خلال فترات التشكل والمراهقة، وتحاول مرحلة الطفولة تبنى مواقف متناقضة تماماً مع تلك التى تتبناها مراحل الكبار .. ونحن مع الطفولة وعالمها أمام شخصيتين: شخصية طفل عاجز ضعيف غاضب متمرد ثائر، ولهذا فإن هذه الشخصية ترتبط بغيرها، وبمن حولها، ويعتمد عليهم اعتماداً كاملًا فى إشباع حاجاته الضرورية حتى يضمن بقاءه على قيد الحياة .. بمثل هذه البداية، وفى إطار ظروف وطبيعة تلك المرحلة، تتحدد شخصية الطفل، وتطبعه بالطابع الإنسانى والخصوصية الاجتماعية، والانتماء البيئى، وتتولد من تلك المرحلة الاعتمادية الاتكالية التى تفرضها طبيعة الطفل وتحتمها شخصيته، علاقة تنمو فى اتجاه الواقع، والبيئة والمجتمع الإنسانى بصفة خاصة. هذه العلاقة، التى تبدو كأنها من أخص خصائص الكائن الإنسانى بعامة، وشخصية الطفل بخاصة، وذلك بحكم ولائم الفرجة، وبذخ الألوان المبهرة، وأنواع الأخيلة التى تقوى من طموحات الطفولة .. ومن هذه الشخصية تنمو فى الوقت نفسه شخصية الطفل المستقل وتنبثق منها إمكانات تحقيق استقلال تلك الشخصية، أى أن الشخصية السوية الواعدة للطفل العاجز لضعيف الغاضب المتمرد، تبدأ خلال هذا الصراع، فى التكون وفى سياق الحياة وخبراتها؛ لأن الصراع كامن فى بناء المجتمع أساسًا ويعتبر الطفل البيئة الأصيلة لهذا الصراع القائم بين الضعف، وقوى الحياة فى التحرر

والانطلاق، نفيًا للعجز، والاعتماد على الغير. ويتحقق هذا التناقض فى اعتماد الشخصية على الكبار، وقدراتها الكامنة فى التحرر والاستقلال. ومن ثم ينطوى هذا الفرع الإيجابى والحيوى على شخصية البنية الأساسية للمجتمع.

ويأثر من هذا كله، ومايخترق عالم الطفولة من تحديات وصعوبات، ومايواجه مرحلتها من مواقف وصراع خلال رحلتها نحو الاكتمال، وبناء الشخصية السوية الراشدة يصبح الفن بعامة، وفنون التمثيل المسرحى بخاصة، عاملا قويًا ورافدًا مغذياً وقادراً على التأثير فى عملية التكيف الاجتماعى، ومن أهم العناصر فى بناء الشخصية، وتكوين توجهات الطفل، وذلك بسبب ماينطوى عليه فن التمثيل المسرحى من صراع إيجابى، وحوار قادر على تكوين الرأى، والرأى المخالف. وبسبب طرقه الجوانب الانفعالية والنفسية المناسبة، والقريبة من شخصية الطفل .. حيث فنون المسرح، وكل مايتصل بها من فنون وآليات أخرى قدرة على مخاطبة عاطفة الطفل ووجدانه بشكل يقل عنه أشكال الإبداع الأخرى .. والمسرح بهذا قادر، لو أحسن استخدامه، وتوظيفه فى التأثير على الطفل، ربذر بذور التوجهات الصالحة، والكشف عن قدرات الطفل، وتفجير كل شحناته نفيًا للطفولة الساذجة، ودعمًا للشخصية الواعدة القادرة على التطبيع والتنبؤ. ويصبح المسرح ذا أثر متنام، إذ اقترب من عالم الطفولة، ومس ماتنطوى عليه نفسه، ووجدانه وعقله من إحساسات وحساسيات، ومن عواطف ونزوعات، ومن انفعالات وتوجهات .. وهذا يفرض علينا شكلاً فنيًا ذا خصوصية تتفق وطبيعة مرحلة الطفولة والاهتمام بشكل من أشكال المسرح. وهو مايعرف بمسرح الطفولة. وشأنه في ذلك شأن «مسرح العمال»، والفلاحين، والشباب حيث الاهتمام بمراحل النمو فى «مسرح الطفل» كتابة وإخراجًا وفعلا تمثيليًا، وفنونًا تشكيلية من أهم مايميز هذا النوع من المسارح وهذا مايجعلنا أمام حقيقة مفادها تكامل الفنون المقدمة للطفل.

وبهذا المعنى تتحدد معالم «مسرح الطفل»، والذى يشترط بدوره نصًا مسرحيًا يتوجه بالتحديد إلى الأطفال، مراعيًا كل خصائص النمو المحددة للمجموعة التى يخاطبها، ومخرجًا يمتلك الثقافة الموصولة بعالم الطفولة، وممثلا

وفنانًا تشكيليًا، ليصبح كل منهم رد فعل لكل مايعيشه الأطفال من خيالات وأحلام، وقادراً على التجسيد والتشخيص والتعبير التشكيلى، وذلك لما ينطوى عليه عالم الطفل من رموز ونماذج ومواقف. والتعامل مع المراحل، ونمو الأطفال وتقسيمهم إلى مراحل، يجب أن ينسينا مراعاة كل بيئة، ودرجة الرقى الحضارى فالأطفال الذين نتوجه إليهم، يتأثرون فى تركيبهم بدرجات متفاوتة من التعليم والثقافة والحضارة. وعموماً فإن المسرح قد أصبح ضرورة للأطفال ضمن ضرورات أخرى تعمل على تشكيل عقله ووجدانه وشخصيته .. وإذا كان فن المسرح خبرة ثقافية ممتعة للكبار .. فهو اشتياق ملح ولحظة سديمية لدى الأطفال .. حيث ينتظرون تلك اللحظة التى يغادرون فيها أرض الواقع فى رحلة خيالية، وسماوية إلى عالم الأحلام، أى إلى اللحظات السحرية التى تغمرهم بالضياء والرؤى والخيالات، ومن ثم تبذر جميع البدور التى تننمو فى عالمهم محبة وتسامحاً وخبرة، ومعرفة، وانتماء، فعالم الطفل، هو صورة من صور الطبيعة المترعة بالخفايا والأسرار، وهو صورة من صورها المترعة جمالاً، وحبوراً. من ثم كان الخيال من أكثر عناصر هذا العالم تأثيرا، وصعوداً بالطفل إلى مرافىء الأمان، وشواطىء العالم المأمول، ولهذا فإن عالم الطفل بوتقة انصهار رائعة للحقيقة والخيال. لكن بشرط الإمساك بالفصل بينهما بذكاء وحكمة .. والفاصل مابين الحقيقة والخيال فى «عالم الأطفال» بالغ الرقة والعذوبة والشفافية بحيث يسهل اجتيازه دون جهد ملموس .. وهذه الطاقة الإيهامية الكبيرة، تضع أمام العاملين فى ميدان «مسرح الأطفال» مسئولية قيادة العمل الفنى فى إطار منظومة راعية وعياً فنياً ونفسياً بما يجعل الانتقال من مستوى إلى مستوى هو عملية اكتشاف وإضافة خبرات، والانتقال من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال هو كامن فى المشاهد وتتابع الأحداث لكن فى إحساس الطفل نفسه يكون الانتقال من عالم الحقيقة الجزئية إلى عالم الحقيقة الكلية فيشعرون بنشوة كبرى، تغذى أرواحهم عندما يقبضون تلقائياً وعفوياً، ومن خلال اندماجهم على حقيقة من الحقائق، ومعرفة من المعارف، ومعلومة من المعلومات .. وهكذا نستطيع التفاهم

مع أهم مرحلة من مراحل نمو الإنسان، وتكوين أساسيات وآليات بنائه لإنساني والاجتماعي والحضارى .. وبهذا - أيضًا - نكون قد حققنا بعض المعرفة «بعالم الطفل»؛ لأن معرفتنا بهذا العالم يشوبها كثير من النقص والقصور، إذ برغم قرب الأطفال من قلوبنا، وارتباطهم المصيرى بنا .. فهم مع ذلك بعيدون عنا. ومستقبلنا هو مستقبل أطفالنا، ولن يتحقق لهذا المستقبل نمو واطراد وازدهار إلا إذا تفهمنا عالمهم، وبذلنا من الوسائل والعوامل مايجعلنا قادرين على تفهم هذا العالم، لأن فض مغاليق هذا العالم، هو بمثابة مفاتيح، نتعامل بها مع عالمهم الذى هو جزء من حركة الحياة نفسها. فالحقيقة التى نريد القبض عليها- ونحن نتعامل مع الطفل بالفن، وبالعلم، وبالتربية الكاملة التى تشمل الفن والعلم - هى تكوين رؤاه، حتى يدرك واقع أمته، ويتصور المستقبل من تاريخها، وحياتها، ويدرك أيضاً متطلبات الحضارة فى العصر الذى يعيش فيه، واحتياجات الحياة فى المجتمع الذى ينتمى إليه. وإننا بهذه التربية القائمة على الفن والعلم، نحقق من الطفل، فوق ماحققنا هدفا «براجماتيا» ومواطنا صالحا لأمته، وبأمته.

ولهذا فإننا بالمسرح والفرجة مع «عالم الطفل» نحاول أولاً أن يتخلص طفلنا فى خطواته الباكرة من ارتباطه الشديد بأبويه، وأن يبدأ فى تشكيل شخصيته وعالمه الخاص .. ثم فى مرحلة لاحقة، ليتعلم مع مجموعته وجيله معنى التعاون، والتخلى عن الأنانية، وأن نغرس فيه معانى الأخذ والعطاء وفى مرحلة تالية، نعمل خلالها ومن خلال بث أفكارنا، على أن تتشرب طفولتنا المتطورة كل القيم، والفضائل التى لاغنى عنها لميلاد إنسان جديد، ونواة بناء مجتمع يضع أولى خطواته على طريق التقدم، ثم نأخذ بالمسرح الموجه، والدراما التاريخية تعميقا للبطولة، والرموز الوطنية، والقومية، والدينية، والفنية، والثقافية، والحضارية فى عقل ووجدان وقلب الطفولة الممتدة، ونزرع فى شخصية الأطفال معنى الشهامة والنجدة والتضحية والوفاء والإيثار والفردية المستقلة والمستقرة والمنجذبة دائمًا إلى محاورها الاجتماعية والإنسانية والوطنية والقومية .. وفى كل تلك المراحل وهذه الفترات المتتابعة من مرحلة الطفولة الممتدة من الميلاد إلى عتبات الشباب

يكون الاهتمام بعنصر الخيال العاقل الرشيد، ومن ثم تنطوى كل الأعمال المقدمة «لعالم الطفل» على هذا العنصر .. لكن بدرجات مختلفة كمًا وكيفًا .. حيث الفرجة والمسرحية، تبعث الحس والشعور فى الحيوان، والنبات، والجماد، وتلغى فيها أبعاد الزمان والمكان، وتفيض فيها مشاعر الوفاء والتضحية والإخلاص والعدل، وينتصر فيها الخير دائمًا. والمسرح واحد جهير الصوت، يصرخ فى البرية معلناً أهمية دوره فى تربية الطفل، وتنشئته وتوجيهه، والانتقال به من عالم الصغار، إلى عالم الكبار مسلحًا بالخبرة الحياتية والتجربة الاجتماعية، والإرادة الخلاقة والقدرة الإبداعية، والشخصية الابتكارية، حيث المجتمع العظيم، طفولة عظيمة سعيدة، والطفل رجل صغير، والأمة فى مستقبلها تقاس بموقع طفولتها من حركة الحياة، ولاشىء كالمسرح يستطيع أن يحول المواطن بعامة، والطفل بخاصة إلى طاقة فاعلة، وواعية فى الوقت نفسه، وعالم المسرح هو العالم الوحيد الذى يجعل الفعل صادرًا عن الفهم؛ لأن المسرح وهو فى هذا يتفق مع العلم والمعرفة ومؤسساتهما – يجعل الفعل مناط الفهم، وإدراك الأشياء. من ثم لايستطيع الطفل أن يفهم، إلا إذا فعل، وقام بنفسه بهذا الفعل – وهكذا يظل الفهم مشكلة الفعل – حيث المعرفة هى معرفة مادية وإنسانية وجسدية، ونتعلم هذه المعرفة، إذا قمنا نحن بفعلها ولهذا كان المسرح منطلقًا لمواطن قادر على الفعل، ولطفولة قادرة على الفهم من واقع القيام بالفعل الذى هو مواطن الفهم، ومفرزة المعرفة ومن أجل طفولة قادرة على الفهم والفعل، علينا أن نقدم لهم مسرحًا ممتازًا. ففن المسرح بشتى أنواعه، وأشكاله، بدءًا من الفرجة، وانتهاء بمسرح الفكرة، هو ارتقاء بالإنسان: حواسه وأفكاره، ومدركاته لكن أفضل تأثيراته، هو إتاحة فرصة الارتقاء بالفعل المادى المجرد من كونه، فعلا عشوائيًا غير مفهوم، إلى مرتبة الفعل الذى يتعلم منه الإنسان الفهم والمعرفة.

هذا وبالله التوفيق، ومنه العون.

عبد الرءوف أبو السعد